عبدة بنت أبى شوال

مولاة رابعة العدوية

* سيدة الزاهدين

تقول عبدة بنت أبى شوال :

هل كان زهد رابعة بنت إسماعيل العدوى ناشئا من أنها ولدت فى بيت خصاصة ـ فقر وحاجة ـ ؟ وتربت فى أحضان الفقر ؟ أم أقبلت عليها الدنيا فزهدت فيها وانقطعت عنها وأغضت بصرها وقلبها عن زخرفها ومتاع غرورها ؟ سمعت عن رابعة فتطوعت لخدمتها فرأيت صورة رائعة من الزهد

كانت رابعة بنت إسماعيل العدوية من الزهاد الذين يعطون الجائع ويكسون العارى ويساعدون المضطر ويعينون ذا الحاجة ويفكون العانى ـ الأسير ولا يرددون سائلا قط سواء ألحف فى سؤاله أو لم يلحف ، لقد تعلمت رابعة هذه الفضائل والمكارم والقيم من حبيب الرحمن ﷺ فإنه لم يشبع من خبز الشعير قط ولم يأكل صنفين من الطعام على مائدة واحدة .

كانت رابعة العدوية قد عصمت يدها من جمع المال ، كما عصمت نفسها من الشهوات وعينيها من التطلع إلى مباهج الدنيا فقد كان بوسعها أن تعيش فى سعة من الرزق لو أنها قبلت بعض الهبات التى قدمها لها التجار وأرباب الثراء فى البصرة فقد كان موسرو البصرة يتنافسون فى تقديم الهبات إلى رابعة ولكنها لم تمد يدها لإنسان لتأخذ منه شيئا حتى ولو كانت فى مخمصة .

جاء مالك بن دينار يوما فوجد رابعة العدوية تشرب من جرة مكسورة وقد فرشت على الأرض حصيراً من خوص قديما ومخدتها من اللبن ـ الطوب النيئ ـ

فقال فى صوت ينبض بالحزن :

ـ يا رابعة : لى أصدقاء أغنياء فإن سمحت لهم أن يعطونى شيئا من أجلك

فانتفضت رابعة وكأن عقربا لدغتها لما سمعت ذلك وقالت وهى تتنهد أسفا :

ـ لقد أسأت القول يا مالك ، إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ، فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا

قال أحد الأغنياء ذات يوم :

ـ يا رابعة : سلينى حاجتك.

قالت رابعة العدوية :

ـ إنى أستحى أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها.

* من أدى الصلاة بلا حضور قلب فهو لاه

تقول عبدة بنت ابى شوال :

قالت لى رابعة ذات ليلة :

ـ يا عبدة : هل عجنت العجين ؟

قلت :

ـ نعم

وراحت رابعة تصلى ، وفى سجودها فكرت فى العجين :

ـ هل اختمر العجين ؟

فلما نامت تلك الليلة رأت فى منامها قصرها فى الجنة قد تساقطت شرفاته

فانتبهت من نومها فزعة :

ـ عبدة يا عبدة

فقلت :

ـ لبيك سيدتى

وروت لى ما رأت فى نومها ثم تساءلت :

ـ يا عبدة : هل من أدى الصلاة بلا حضور قلب فهو لاه ؟

فقلت لها :

ـ يا سيدتى : لقد صلى رجل فى بستانه فأعجبه ثمره فلم يدر كم صلى ؟ ثلاثا ؟

أربعًا ؟

فجعل بستانه صدقة فى سبيل الله

فقالت رابعة :

ـ اخبزى هذا العجين وقدميه إلى الفقراء والمساكين

* إذا كان المحب نائما فإن المحبوب يقظان

تقول عبدة بنت أبى شوال :

دخل لص دار رابعة ذات ليلة وهى نائمة فحمل درعها ـ ثوبها ـ وطلب الباب فلم يجده ، فوضع الثوب وطلب الباب فوجده ، فأسرع واختطف الثوب وهم بالفرار ولكنه لم يجد الباب ، فأعاد ذلك مرارا كثيرة فهتف به هاتف:

ـ إذا كان المحب نائما فإن المحبوب يقظان ، ضع الثوب واخرج من الباب ، فإنا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة

فوضع اللص الثوب

فشعرت بحركة فى الحجرة فهتفت :

ـ من هذا :

فاستيقظت رابعة فلما رأت اللص قالت :

ـ يا هذا : لا تخرج قبل أن تأخذ شيئا

فتعجب اللص من قولها وقال :

ـ ليس فى الحجرة غير هذا الإبريق فماذا أفعل به ؟

فقالت رابعة العدوية :

ـ أخرج إلى صحن الدار بهذا الإبريق وتوضأ منه وصل ركعتين وسوف تخرج بشىء.

كانت لحظة إيمانية نورانية فى حياة اللص ، لقد وجد فى صدره استجابة لما أمرته به رابعة أخذ اللص الابريق وتوضأ منه ثم وقف يصلى

تقول عبدة بنت أبى شوال :

ـ فلما رأيته على هذا الحال أدركت أن رحمة الله عز وجل غمرته بالتوبة

رفعت رابعة العدوية يديها إلى السماء وقالت :

ـ سيدى ومولاى : هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئا عندى وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه فضلك وثوابك تقول عبدة :

رحت أختلس النظر إلى اللص ، وماذا كان أثر الصلاة فى نفسه ، ولشدة ما سرنى أن رأيت اللص قد اندمج فى الصلاة حتى مطلع الفجر

* سترك الله

تقول عبدة بنت أبى شوال :

كانت رابعة إذا قامت إلى الصلاة انهمرت الدموع من عينيها فيصبح مكان سجودها كأن طفلا قد بال فيه دخل علينا ذات يوم رجل اسمه سجيف بن منظور وكانت رابعة ساجدة ، فلما رفعت رأسها أحست به ، فوجد موضع سجودها مبللا من دموعها

فسلمت وقالت له :

ـ يا بنى : ألك حاجة ؟

قال سجيف بن منظور :

ـ لا ولكن جئت لأسلم عليك

فبكت رابعة العدوية وقالت :

ـ سترك الله

ثم دعت بدعوات وقامت إلى الصلاة

* قيام الليل :

ذات ليلة شكت عبدة بنت أبى شوال لرابعة بنت إسماعيل طول السهر وطلبت حيلة تجلب بها النوم فقالت رابعة العدوية :

ـ يا عبدة : إن لله نفحات فى الليل والنهار ، تصيب القلوب المتيقظة وتخطئ القلوب النائمة فتعرضى لتلك النفحات

فقالت عبدة :

ـ يا سيدتى : أيهما أرجى نفحات الليل أم نفحات النهار ؟

قالت رابعة :

ـ إن هذه النفحات بالليل أرجى لما فى قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل

قالت عبدة :

ـ كيف الليل عليك؟

قالت رابعة بنت إسماعيل :

ساعة أنا فيها بين حالتين : أفرح بظلمته إذا جاء ، وأغتم بفجره إذا طلع ، ما تم فرحى به قط ، ما يحزننى شىء سوى طلوع الفجر

تقول عبدة بنت أبى شوال :

دخلت على رابعة العدوية ذات ضحى فرأيت على وجهها النور فقد كانت كثيرة الصوم والبكاء

* الدنيا

تقول عبدة :

دخل على رابعة رياح القيسى وصالح بن عبد الجليل وكلاب فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها

فقالت رابعة :

ـ إنى لأرى الدنيا بترابيعها ـ بجهاتها الأربع وكل ما فيها ـ فى قلوبكم

فقالوا :

ـ من أين توهمت علينا ؟

قالت رابعة العدوية :

ـ إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبهم فتكلمتم فيه

فقال رياح القيسى :

ـ يا رابعة : ادعى

تقول عبدة بنت أبى شوال :

كانت رابعة مجابة الدعاء ، ولكنها لم تكن تدعو لغرض دنيوى ، وإنما كانت تدعو الله إما لتفريج أزمة إنسان أو لإعطائها ما تواجه به موقفا طارئا

التصقت رابعة بنت إسماعيل بحائط حجرتها وقالت :

ـ من أنا يرحمك الله ، أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطرين ـ المضطر ـ

وأقبل سفيان الثورى وجعفر بن سليمان فدخلا على رابعة ثم رفع سفيان الثورى يده وقال :

اللهم إنى أسألك السلامة

فبكت رابعة فسألها :

ـ ما يبكيك يا رابعة ؟

قال رابعة العدوية :

ـ أنت عرضتنى للبكاء

فقال سفيان الثورى :

ـ وكيف ؟

قالت رابعة :

ـ أما علمت يا سفيان : إن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ فكيف وأنت متلطخ بها ؟

فقال سفيان الثورى :

ـ واحزناه

فقالت رابعة العدوية :

ـ لا تكذب ، واقلة : وقلة حزناه ، لو كنت محزونا ما هناك العيش ثم قالت :

ـ يا سفيان : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم . . فاعمل

* يا نفس كم تنامين ؟

يقول عبيس بن مرحوم العطار :

حدثت عبدة بنت أبى شوال وكانت من خيار إماء الله وكانت تخدم رابعة :

ـ حدثينى يا عبدة : كيف عبادة رابعة ؟

قالت عبدة :

كانت رابعة تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة :

ـ يا نفس كم تنامين ؟

وإلى كم تقومين ؟

يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور

تقول عبدة بنت أبى شوال :

ـ فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت

* وفاة رابعة العدوية

تقول عبدة بنت أبى شوال :

لما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت :

ـ يا عبدة : لا تؤذنى ـ تعلمى ـ بموتى أحدا ، وكفنينى فى جبتى هذه ـ جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ـ

تقول عبدة بنت أبى شوال :

ـ فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه

* رؤية رابعة فى المنام

تقول عبدة بنت أبى شوال :

رأيت رابعة العدوية بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى عليها حلة من إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئا قط أحسن منه فقلت :

ـ يا رابعة : ما فعلت الجبة التى كفناك فيها والخمار الصوف ؟

قالت :

ـ إنه والله نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه على ، وطويت أكفانى وختم عليها ورفعت فى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة

قلت :

ـ لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟

قالت رابعة :

ـ وما هذا من كرامة الله عز وجل لأوليائه

فقلت :

ـ فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟

قالت رابعة :

ـ هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى

قلت :

ـ ويم وقد كانت عند الناس ؟

ـ أى أكثر منها

قالت رابعة :

ـ إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست

فقلت :

ـ فما فعل أبو مالك ـ تعنى ضيغما ـ ؟

قالت رابعة العدوية :

ـ يزور الله متى شاء

قلت :

ـ فما فعل بشر بن منصور ؟

قالت رابعة :

ـ بخ بخ أعطى والله فوق ما كان يأمل

قلت :

ـ فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل

قالت رابعة العدوية :

ـ عليك بكثرة ذكره ، أوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك